شرح قصيدة يا قوم لا تتكلموا

إن الشاعر معروف الرصافي هو واحد من أبرز الشعراء العرب وكان شاعر العراق الأول في زمانه، لذلك ما تزال شعبيته إلى هذا اليوم ويبحث الكثير من الناس عن قصائده وعن شروحات تلك القصائد ومن بينها شرح قصيدة يا قوم لا تتكلموا، حيث تدور أفكار هذه القصيدة في فلك الاستبداد والاستعمار واضطهاد الشعوب وقمع الحريات ومنع الناس من التعبير ورفع الصوت في وجه الظلم، وفي السطور الآتية سنشرح لكم أبيات هذه القصيدة:

- يا قوم لا تتكّلموا إن الكلام محرَّم

ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلاّ النُوَّم

وتأخّروا عن كل ما يَقضي بأن تتقدّموا

ودَعُوا التفهُّم جانباً فالخير أن لا تَفهموا

يخاطب الشاعر أهله وقومه الذين أبناء الشعوب العربية التي كانت تعاني من الاحتلال الأجنبي واستغلال الموارد ونهب الثروات إلى جانب الظلم والاستبداد الذي يمارسه الاحتلال بالتواطؤ مع ولاة الأمر الذين يقمعون أي صوت ينادي بالحرية، يقول الشاعر بأسلوب ساخر: يا شعبي لا تتكلموا عن الظلم والاستبداد ولا تطالبوا بحقوقكم ولا تتحدثوا عن حريتكم فهذا الكلام محرم في هذه البلاد ولا ينبغي أن تنطقوا به، والأفضل لكم أن تبقوا مستغرقين في النوم وألا تثوروا في وجه العدوان فالذين يثورون هم الذين يخسرون أموالهم وأولادهم وأنفسهم وأما الذين ينامون على الضيم هم الذين يكسبون العيش والحياة، وأيضاً عليكم ألا توكبوا آخر المستجدات في مجالات العلم العمران والصناعة وغيرها من المجالات التي ستسهم في حريتكم وتحقق لكم الخلاص من العبودية والاستبداد، وابتعدوا عن أي شيء يحتاج إلى التفكير في الفهم فهؤلاء الطغاة يريدونكم مثل الدواب التي لا تعقل ولا تسمع ولا تتكلم.

وتَثّبتُّوا في جهلكم فالشرّ أن تتعلَموا

أما السياسة فاتركوا أبداً وإلاّ تندموا

إن السياسة سرّها لو تعلمون مُطلسَم

وإذا أفَضْتم في المباح من الحديث فجَمجموا

والعَدلَ لا تتوسَّموا والظلمَ لا تتجَّهموا

وعليكم أن تظلوا غارقين في مستنقعات الجهل فالعلم والفهم لن يجلب لكم إلى المتاعب والشرور، وإياكم أن تتحدثوا أو تتدخلوا بالسياسة أو تبدوا آراءكم بالأحداث السياسية التي تجري لأنكم ستندمون أشد الندم إذا تدخلتم بالسياسة، فالسياسة علمٌ معقد جداً ومليء بالطلاسم التي لا يفهمها إلا رجال السياسة أما أنتم فلن تكونوا قادرين على فهمها بعقولكم الصغيرة، وإذا أردتم أن تتكلموا عن الأشياء التي نسمح لكم بالحديث عنها فعليكم أيضاً أن تخفضوا أصواتكم تمتمةً وألا ترفعوا أصواتكم أبداً، ولا تستبشروا في أن يتحقق العدل في يوم من الأيام ولا تتهجموا على الظلم والظالمين، يحاول الشاعر نقل الواقع المزري الذي يعيشه الناس من الصمت على الظلم.

من شاء منكم أن يعيش اليوم وهو مُكرَّم

فَليُمسِ لا سمعٌ ولا بصر لديه ولا فم

لا يستحق كرامة إلاّ الأصمّ الأبكم

ودَعُوا السعادة إنما هي في الحياة توّهُم

فالعيش وهو منّعم كالعيش وهو مذمَّم

وإن أردتم أن تعيشوا بكرامة فعليكم أن تكونوا مثل البهائم التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تتكلم، فالكرامة لا يستحقها إلا الأصم الأبكم والعيش الكريم لا يحصل عليه إلا من يسكت عن الحق، ولا تفكروا في الحصول على السعادة ولا تبحثوا عنها في هذه الحياة لأنها غير موجودة وما هي إلا مجرد أوهام، ولا فرق بين الإنسان الذي يعيش في نعيم والإنسان الذي يعيش في الظلم والقهر فكلاهما سواء في هذه الحياة، وفي هذه الأبيات يكمل الشاعر مخاطبة الناس وحثهم على الثورة على واقعهم.

فارضَوْا بحكم الدهر مهما كان فيه تحكُّم

وإذا ظُلِمتم فاضحكوا طرباً ولا تتظلّموا

وإذا أُهِنتم فاشكروا وإذا لُطِمتم فابسِموا

إن قيل هذا شهدكم مُرّ فقولوا علقم

أو قيل إن نهاركم ليل فقولوا مُظلم

وعليكم أيها الناس أن ترضوا بالقضاء والقدر فهو الذي جلب المحتل إلى بلادكم وأوصلكم إلى الحال التي أنتم بها الآن، فعليكم أن ترضوا بأحكام الدهر مهما كانت لأن لها حكماً، وإذا شعرتم بالظلم والاضطهاد فما عليكم إلا أن تضحكوا بصوت عالٍ وتتجاهلوا الظلم الذي حل بكم وألا تتظاهروا أبداً بأنكم مظلومين، وإذا شعرتم بالإهانة من ظالميكم فعليكم أن تشكروهم على ذلك وإذا ضربوكم فعليكم أن تبتسموا لهم حتى لا يزدادوا في جورهم وظلمهم، وعليكم أن تستجيبوا لهم فيما يقولون وألا تناقشوهم حتى لو كانوا على خطأ في قولهم، حتى لو قالوا بأن طعم الشهد مرّ فعليكم أن تقولوا أنه مر أيضاً، وإذا قالوا لكم إن النهار مظلم فعليكم أن تؤيدوهم وتقولوا لهم بأن النهار شديد الظلام.